

مقال في سيرة الأستاذ الدكتور / عبد الباقي عبد الغني بابكر

كلية التربية - جامعة الخرطوم

أ.د. الرشيد الحبوب محمد الحسين

مقدمة:

إن المرء عندما يطلع في السيرة الذاتية، والعلمية والمهنية لكبار العلماء يحتار وينبهر ولا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي. إنه لشرف عظيم لي أن يطلب مني أن أكتب عن سيرة أستاذ الجيل الأستاذ البروفيسور / عبد الباقي عبد الغني بابكر. انه أستاذي في مرحلة البكالوريوس في المقام الأول، وقد كان نعم الأستاذ والمعلم الذي حُبب إلينا علم الجغرافيا وحُبب علم الجغرافيا إلينا. قبل التعليق على سيرة أستاذنا البروفيسور / عبد الباقي، لابد من كلمة في حقه من ناحية الصفات الشخصية والعلمية والمهنية التي يمتاز بها، والتي في ظني هي التي كانت السبب وراء كل ما أعطى من علم ومعرفة لطلابه والآخرين. بحكم معرفتي اللصيقة بأستاذنا الكريم أيام الدراسة الجامعية في مرحلة البكالوريوس وبحكم زمالتي له أستاذاً بعد سنوات، فقد لمست في أستاذنا العديد من الخصال والصفات التي قلما تجتمع في شخص واحد. انه كان دائب النشاط داخل قاعات الدراسة وخارجها، كان مخلصاً في كل ما يعمل، كان متقناً لكل الأعمال، كان صبوراً مثابراً لا يعرف الكلل والملل، كان يملك الجرأة والمبادأة والمبادرة، كان يعرف كيف يتعامل مع الناس بكل اللباقة واللفظ ومن غير تكلف، وكان رياضياً من الطراز الأول.

ليس غريباً على أستاذنا الفاضل أن نلمس فيه كل هذه الخصال والصفات العلمية والمهنية والشخصية والذاتية، حيث ان كل هذه الصفات لم تأت من فراغ، وليست وليدة الصدفة إذا علمنا أن البروفيسور / عبد الباقي قد كانت له كل تلك الخبرات والتجارب وهو ذلك المعلم في المدارس الوسطى في الستينات قبل التحاقه بمعهد المعلمين العالي. كانت المدارس في ذلك الوقت مكاناً خصباً

يتعلم المعلمون فيه من بعضهم البعض، ومن خلال الأجواء المدرسية التي كانت تعج بالنشاط المدرسي، الأمر الذي انعكس في اكتشاف المواهب والقدرات، ليس فقط لدى التلاميذ، بل المعلمين أيضاً. كان المعلم ومنهم أستاذنا، يقود العملية التربوية والتعليمية وكل أوجه النشاط المدرسي الهادف. تلك الأجواء المدرسية المواتية هي التي صقلت مقدرات ومهارات أستاذنا الكريم.

أضف إلى كل ذلك خبراته الجمّة التي اكتسبها من خلال وجوده في ألمانيا عندما كان يحضر رسالته للماجستير والدكتوراه. بحق وحقيقة كانت الفترة تمثل عاملاً مهماً في اكتساب أستاذنا لكل الصفات والصفات التي ذكرت، حيث توفرت المعرفة وسبل الحصول عليها، سواء كان ذلك من خلال العمل الجامعي في مجال البحث العلمي، أو خارجه في المجتمع الألماني ككل. لا شك أن وجود أستاذنا في ألمانيا في تلك الفترة كان له الأثر البالغ في توسيع خبراته وقدراته ومهاراته العلمية، والمهنية، والشخصية، وذلك لتوافر الامكانيات والعينات العلمية والبحثية في جامعات ألمانيا العريقة. يضاف إلى كل ذلك احتفال أستاذنا الفاضل بالمؤسسات العلمية والبحثية خارج السودان، وعلى وجه الخصوص السنوات الخمس التي قضاها في جامعة محمد بن سعود الإسلامية في السعودية على سبيل الاعارة.

هذا قليل من كثير يمكن أن يقال عن أستاذنا / عبد الباقي وخصاله وصفاته التي تميز بها حتى أصبح معروفاً بها.

أما عن مؤهلات أستاذنا العلمية، فهي عديدة فهي عديدة، ومنها دبلوم معهد المعلمين العالي عام 6691م مع التميز الأكاديمي والمهني. ومعهد المعلمين في ذلك الوقت كان معلماً وصرحاً علمياً خدم التربية والتعليم في السودان والدول المجاورة ولا سيما الخليجية، كما خرّج أكفأ المعلمين للمرحلة الثانوية والذين هم أصلاً متفوقون من الشهادة السودانية، ومن بين الأوائل من بين خريجي المعهد الذين ابتعثوا للتحضير لدرجتي الماجستير والدكتوراه في (الجغرافيا)، ولقد تحصل أستاذنا على تلك الدرجات العلمية من واحدة من أعرق وأشهر الجامعات الألمانية في الأعوام 1971م - 1974م بتقدير ممتاز. مما ميز رسالته للدكتوراه عام 1974م أنها كانت إطار (التنمية الإقليمية)، وهو مجال حيوي كان السودان وغيره من الدول النامية في أمس الحاجة إليه.

هذا بالإضافة إلى العديد من الدورات التدريبية التي التحق بها في الفترة الممتدة من 1973م حتى 2011م، والتي من أهمها: دورة الوسائل

السمعية والبصرية بجامعة مارتن لوثر Martin Luther بألمانيا عام 1973م، ودورة الاستشعار عن بعد بقسم الجغرافيا بجامعة هامبورج بألمانيا عام 1981م، ودورة نظم المعلومات الجغرافية بمؤسسة SETEX بالخرطوم في فبراير 2002م، ودورة ضمان الجودة في التعليم العالي بوكالة ضمان الجودة في المملكة المتحدة (QAA "Quality Assurance Agency") في أكتوبر 2004م. وفي جامعة هارفارد الأمريكية التحق أستاذنا بدورات متميزة ببرنامج وايد وورلد بكلية الدراسات العليا في مجال: التعليم من أجل الفهم والاستيعاب (1) و (2) Teaching for Understanding، ودورة القيادة من أجل الفهم (Leading for Understanding) وحصل علي إجازة مدرّب في المجال وكان ذلك في الفترة ما بين 2008م حتى 2011م.

إن الحضور والمشاركة الفاعلة لأستاذنا في تلك الدورات التدريبية المذكورة إن دلت على شيء انما تدل بكل وضوح على شغف أستاذنا الفاضل وسعيه الدؤوب لتطوير نفسه علمياً ومهنياً. يتضح ذلك في اختياره للدورات وأهميتها وارتباطها بالواقع التربوي والتعليمي في مدارس وجامعات السودان وغيرها من المؤسسات الأخرى ذات الصلة والرسالة المهنية. من أكثر الجوانب التدريبية التي اهتم بها أستاذنا الفاضل تلك المتعلقة بالجودة وضمان الجودة في التعليم العالي بصفة عامة، وجامعة الخرطوم بصفة خاصة. كان ذلك نتيجة لإيمان بروفيسور/ عبد الباقي بأن ترقية العملية التعليمية، وخاصة في الجامعات لا يمكن أن تتم إذا لم يكن اهتمام زائد بهذا الجانب المتعلق بالجودة وضمان الجودة وعمل الشيء الصحيح بشكل صحيح من أول مرة وفي كل مرة من المرات.

نالت التقنيات التعليمية نصيبها من مجهودات أستاذنا الكريم، ويرجع ذلك الى فترة بعيدة ترجع الى عام 1973 حيث حصل على دبلوم الوسائل السمعية والبصرية من جامعة مارت لوثر Martin Luther بألمانيا. كذلك أولى أستاذنا اهتماماً كبيراً بموضوع الاستشعار عند بعد في وقت يعود إلى عام 1981م، وحينها لم يكن هذا الموضوع يلقي الاهتمام الكافي من ناحية، كما لم تتبلور تطبيقاته وفوائده التنموية المختلفة فيم جال الزراعة والصناعة والبنى التحتية. والجدير بالذكر أن السودان في تلك الفترة كان في غاية الحاجة لمثل تلك التقنيات، والتي كانت سبباً في تقدم ورقي الدول الأوربية والأمريكية.

في الفترة الممتدة من عام 1961م وحتى 2000م تحصل أستاذنا بجدارة على العديد من المنح العلمية، كان أولها ابتعاثه الى معهد تدريب المعلمين العالي لنيل دبلوم المعهد. ثم منحة المعهد للدراسة في جامعة مارتين لوثر بألمانيا عام 1969م للدراسة لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه في الجغرافيا. نال منحة من برنامج التبادل الألماني (DAAD) لإقامة بحثية في قسم الجغرافيا بجامعة هامبورج في ألمانيا. كما نال زمالة جامعة الأمم المتحدة لإقامة بحثية في كلية سوانزي الجامعية Swansea ببريطانيا عام 1981م. بالإضافة الى ذلك كان حصوله على الزمالة الرفيعة لمؤسسة الإكسندر فون هومبولت الألمانية وقضاها بين جامعتي هامبورج وبأيرويت. ما بين 1982 و1983.

Fellowship of Alexander von Humboldt- Stiftung Germany

ان الناظر الى تلك المنح العلمية المذكورة، والتي كانت في مؤسسات علمية وبحثية مرموقة لابد أن يخرج بانطباعات قوية تؤكد أن تلك المنح المقدمة قد ذهبت الى الشخص المناسب والمؤهل والذي يستحقها. الجدير بالذكر أن مثل تلك المنح في تلك الفترات التي تعود الى السبعينات والثمانينات من القرن الماضي لم يكن تقدم إلى أي شخص إلا المبرزين والتميزين من العلماء. أضف إلى ذلك أن تلك المنح كانت مقدمة من مؤسسات علمية وبحثية مرموقة في ألمانيا وبريطانيا. ولعل مردود تلك المنح والفوائد المجنية منها قد انعكست في الانتاج العلمي أكثر لأستاذنا في الفترات اللاحقة.

كما كانت جدارة وحرفية ومهنية أستاذنا في النواحي العلمية وخاصة في مجال علم الجغرافيا، كانت براعته واضحة عند تقلده للعديد من الوظائف العلمية بجامعة الخرطوم وغيرها من الجامعات والمؤسسات. فقد عمل مساعداً للتدريس بقسم الجغرافيا بمعهد المعلمين العالي عام 1969م، ثم محاضراً بقسم الجغرافيا بكلية التربية بجامعة الخرطوم في الأعوام 1974-1978م. ترقى الى درجة الأستاذ المشارك بجامعة الخرطوم عام 1978م،. نال درجة الأستاذية نيلاً مستحقاً بجامعة الخرطوم عام 1990م وحتى الآن.

فيما يخص المناصب الإدارية العديدة التي تقلدها أستاذنا بروفيسور عبد الباقي يمكن أن نذكر على وجه الإجمال: رئاسة قسم الجغرافيا بكلية التربية جامعة الخرطوم وجامعة محمد بن

سعود الإسلامية بفرع الجنوب أبها خلال الفترة 1988م - 1995م . تقلد عمادة كلية التربية جامعة الخرطوم في فترة عصيبة عام 1990-1993م. في العام 1993م كانت جامعة وادي النيل الناشئة في حاجة ماسة لمن يديرها ويؤسس لها، وبالطبع وقع الاختيار على أستاذنا/ عبد الباقي وصار مديراً لها في الفترة من 1993-1996م ثم مديراً للتعليم الأهلي والاجنبي بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي. تجدر الإشارة الى أن المتأمل في المناصب الادارية والعلمية التي تقلدها أستاذنا أن جميع تلك المناصب والتكليفات جاءت في أوقات عصيبة من تاريخ التعليم في السودان، وكانت هناك العديد من المعوقات والتحديات، اضافة متغيرات كثيرة متلاحقة ومتزايدة وفي نفس الوقت ضاغطة. هذا كله حتم الادارة والتخطيط السليمين الشيء الذي توفر في أستاذنا، ولهذا كانت الفترة التي قضاها متولياً تلك المناصب فترة تمت فيها الكثير من المعالجات والاصلاحات والتأسيس للمستقبل. ومن الأعمال التي يحمده أستاذنا عليها أعماله واهتماماته بتأسيس مؤسسة للتقويم والاعتماد بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الأعوام 2003-2006م، انتقل بعدها للعمل عميداً لكلية التربية بالجامعة العربية المفتوحة بالكويت ثم مستشاراً للجامعة المفتوحة لضمان الجودة خلال الفترة 2006-2012م.

عندما ينظر المرء إلى سلسلة التدرج العلمي والاداري والوظيفي لأستاذنا الفاضل يلحظ مدى الجدارة والحرفية والمهنية. كان كل ذلك بفضل الصفات والخصال التي تمتع بها أستاذنا الكريم، بالإضافة إلى تمكنه من مجال تخصصه وخبراته السابقة التي تم ذكرها. لقد كان أستاذنا مشهوداً له بالكفاءة والمعرفة في مجال الجغرافيا البشرية، ولعل خير شاهد على ذلك رسالته المميّزة للدكتوراه والتي كانت في مجال (التنمية الاقليمية). ظهر كل ذلك جلياً خاصة في فترة عمله مساعداً للتدريس ومحاضراً في السبعينيات، أي بعد أن آل معهد المعلمين إلى جامعة الخرطوم وأصبح كلية للتربية. كان قسم الجغرافيا ساعته في حاجة ماسة إلى التطوير والتحديث من جميع النواحي التدريسية واصلاح بيئة التعليم. لهذا يشهد لأستاذنا الفاضل بدوره الفاعل والمقدر الذي قام به في ترقية القسم من النواحي العلمية والإدارية.

بقدر ما قدم لكلية التربية بجامعة الخرطوم من خدمات، ساهم مساهمة معتبرة عندما كان أستاذاً معاراً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1983-1988م، خاصة في مجال التدريب والبحث العلمي والاشراف على البحوث ورئاسة اللجان العلمية والفنية. بنفس المهمة والنشاط كانت بصماته واضحة عندما تقلد منصب مدير جامعة وادي النيل الناشئة، والتي كانت في حاجة ماسة للتأسيس العلمي والاداري. لاحداث كل ذلك وقع الاختيار على البروفيسور/ عبد الباقي في الفترة من (1993-1995م).

في مجال النشاط الأكاديمي، وفي الفترة الممتدة من عام 1974م وحتى الآن، فلأستاذنا العديد والعديد من الاسهامات والنشاط الأكاديمي المتميز عضويته الفاعلية في مجالس الأقسام بكلية التربية ومجلس البحث العلمي والكلية ومجلس أساتذة جامعة الخرطوم واللجنة الاستشارية بجامعة الخرطوم والجمعية الجغرافية السودانية ومجموعة العمل في ادارة الموارد في الأراضي القاحلة. بالإضافة الى عضويته العديد من لجان تطوير التعليم بوزارة التربية، ورئاسته للمنتدى التربوي لعمداء كلية التربية في السودان. ووضعاً في الاعتبار ان تلك الفترات التي تقلد فيها أستاذنا تلك المناصب قد اعترتها العديد من الصعوبات، والتحديات في نواحي الطلاب والبنية التعليمية وما يلزمها من معينات مالية وقد كانت جد شحيحة. رغم تلك الظروف والملابسات فقد استطاع أستاذنا بحكمته ورويته الادارية ساعده في كل ذلك مهاراته وخبرته الادارية الواسعة في مجالات التخطيط والتنظيم والتوجيه والتنسيق والاشراف، والتقويم، واتخاذ القرارات السليمة لكل ما حوته جداول الأعمال.

ومن اسهامات أستاذنا المقدرة رئاسته للجنة اليونسكو الاقليمية لتقويم ومعادلة واعتماد لشهادات في الدول العربية، خلال الأعوام 2000-2006م.

بالإضافة الى رئاسته الحكيمة لأكاديمية تمهين مهنة التدريس في السودان في الأعوام 2005-2006م، وغيرها من اللجان والمجالس والمراكز بجامعة الخرطوم وغيرها من الجامعات والمؤسسات العربية والاقليمية التي تعنى بقضايا التعليم.

صاحب كل ذلك مشاركته المستمرة والفاعلة في المؤتمرات وورش العمل الخاصة بتطوير التعليم، والتي فاق عددها 140 لقاء كان 79 منها على النطاق العالمي.

في جانب الاشراف العلمي على رسائل الماجستير والدكتوراه، يكفي القول أن أستاذنا قد أسهم اسهاماً كبيراً في دفع عملية البحث العلمي وتدريب طلاب الدراسات العليا في أوقات كانت الحاجة فيها الى التدريب الداخلي أو المحلي بجامعة الخرطوم أو غيرها من الجامعات. أشرف أستاذنا على 19 رسالة دكتوراه و34 رسالة ماجستير، وجميعها كانت متميزة ودارات موضوعاتها على قضايا كانت في حاجة الى حلول ومعالجات.

بالإضافة إلى هذا كله، كان له القدح المعلن في جوانب الاستشارات الفنية والعلمية لوزارة التربية والتعليم، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، والمكتب الاقليمي العربي ليونسكو، والبنك الدولي. للبروفيسور/ عبد الباقي العديد والعديد من المساهمات الفاعلة في مجال الاستشارات الفنية على مستوى وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وكذلك منظمة اليونسكو، بالإضافة إلى التعاون مع بنك التنمية الإفريقي. ففي العام 1993م شارك مع طاقم التقويم لمعهد تدريب المعلمين في السودان. ومن مساهماته الكبيرة في دراسات اليونسكو دراسته التقويمية لواقع الآليات المستخدمة في ضمان الجودة في كليات التربية في الدول العربية. في عام 2011م أنجز دراسته المميزة عن التعليم العالي وتطبيقات الجودة، وفي العام 2015م خرجت دراسته عن ضمان الجودة في السودان من حيث المفهوم، والتطور، والعمليات، والتحديات. كانت الدراسة بطلب من المكتب الإقليمي لليونسكو بالدول العربية. وبطلب من المكتب الإقليمي للدول العربية أتم بروفيسور عبد الباقي دراسته عن ضمان جودة أداء مؤسسات التعليم العالي في الدول العربية. كان ذلك في العام 2016م، وكان ذلك بمعاونة اثنين من الباحثين. للبروفيسور/ عبد الباقي العديد من المنشورات والبحوث المتميزة، وقد بلغت حوالي 51 بحثاً منشوراً و27 بحثاً غير منشور، بالإضافة الى 15 كتاب في التربية، والجغرافيا والدراسات البيئية. جميع البحوث تم نشرها

في مجلات محلية، وإقليمية وعالمية مرموقة وذات تأثير عال. تميزت البحوث المنشورة بحسن اختيار موضوعات الأبحاث مع مراعاة حاجة المجتمعات وواقعها واحتياجاتها والمهددات المحيطة. كما اتسمت بالوضوح في أهدافها، ومنهجيتها، ونتائجها وتوصياتها.

توصل عطاء البروفيسور / عبد الباقي الى جانب أبحاثه القيمة وفيما ألف من كتب لامست حاجة المؤسسات في التعليم العام والعالي، والتقويم والاعتماد لها ولبرامج اعداد وتدريب المعلمين، وضمان الجودة في مؤسسات اعداد المعلمين. من أميز الكتب التي ألفها أستاذنا لتناسب التعليم المفتوح كتب الجغرافيا المصممة لتناسب التعليم المفتوح المقدم من وحدة التعليم المفتوح وكذلك جامعة وادي النيل، والتي تم نشرها بمركز جرش بالأردن عام 2002م. هذا بالإضافة إلى الكتب التي تناولت الجغرافيا والدراسات البيئية المضمنة في كتب الجغرافيا للمرحلة الثانوية. تناولت تلك الكتب أساسيات الجغرافيا والخرائط والجغرافيا الإقليمية في السودان، والاستشعار عن بعد، والجغرافيا الاقتصادية والمشكلات العالمية.

بالإضافة الى تأليف الكتب كان لبروفيسور / عبد الباقي باعٌ واسهام كبير في مجال ترجمة بعض الكتب من الألمانية إلى العربية في مجال التصحر: أسبابه وآثاره.

يحمد للبروفيسور / عبد الباقي مراجعته وتقويمه الدقيق للكتب التي تم نشرها في مجلات ألمانية مرموقة وعريقة.

بالنظر الى هذه السيرة العامرة والمليئة بالإنجاز والعطاء، يتضح مدى حجم مساهمة البروفيسور / عبد الباقي للوطن والعلم وطلابه الكثر. نسأل الله له الصحة والعافية وطول العمر.